السياسة والتعليم

[ألقى هذا الحديث فى مؤتمر التعليم الذى انعقد فى الجمعية الجغرافية فى ١٨ نوفمبر الى ٢٠]

يكره بعض الناس السياسة ويَسْتَحْوِنَ السياسة ويلقون عليها التبعة فيما يفسد الحياة العامة من أكدار وأوزار . فالسياسة فى اعتبارهم خبث ودهاء ، ونفاق ورياء ، وحقد وجفاء ، وطغيان واعتداء ، وحرب هوجاء ، وحزبية صارخة حمقاء ، ونتائجها بالطبع شر فى شر وبلاء فى بلاء .

وهؤلاء فى نظرتهم هذه إلى السياسة معذورون فهكذا أراد الساسة أن تكون السياسة فى أكثر أقطار الأرض وأغلب أدوار التاريخ .

ولكننا لو أنصفنا لخالفناهم ونظرنا إلى السياسة بغير العين التى نظروا بها إليها ، فبرّأناها مما يصفون . فالسياسة فى حقيقة الأمر غير مايظنون . ولا ذنب لها إذا ضل الساسة وتنكبوا سواء السبيل .

السياسة تصريف المسائل العامة ورعاية المصالح العامة . والأصل أن نصرّفها وأن نرعاها بما يرضى الله والضمير . ولو فعلنا لكانت السياسة فى مخبرها وفى مظهرها أفضل المهن وأشرفها وأعظمها شأناً وأكثرها نفعاً وأبعدها أثراً فى سعادة الناس .

والسياسة بهذا التعريف تدخل فى كل شأن من شؤون الحياة وتلعب فيه دورها الخطير . ومن هنا تتجلى لكم العلاقة الوثيقة بينها وبين التعليم ، بل لعل علاقتها به أقرب وأوثق من علاقتها بأى شأن سواه .

فالتعليم غذاء العقول والنفوس والأرواح ، ضرورى كغذاء الأبدان ، لازم كالهواء لحياة الإنسان ، حيوى فى تأكيد الفرق بينه وبين الحيوان . وقد بلغ من أهميته أن أوصانا النبى الكريم عليه الصلاة والسلام بأن نطلبه من المهد

إلى اللحد ، وأن نطلبه ولو فى الصين . فلا عجب إذن أن نعنى السياسة أكبر العناية بشؤون التعليم ، وأن تعتمد عليه أعظم اعتماد فيما ترمى إليه من رعاية مصالح الناس وتحسين مصايرهم .

والتعليم من جانبه يستطيع إذا فهم رسالته على وجهها وأدّاها حق أدائها أن يخطو أوسع الخطوات ويقدم أجل الخدمات فى هذا السبيل .

على أن للسياسة معنى أضيق تميل إليه فى البلاد التى شاء لها القدر القاسى أن يتحكم غيرها فى أقدارها ومصايرها وأبت همة أبنائها إلا أن ينهضوا لاسترداد الحق المهضوم . فى هذه البلاد تمتزج معانى السياسة وتختلط مراميها بالمبادئ الوطنية والمطالب القومية والجهاد فى سبيل الحرية والكرامة والاستقلال وإلى هذه الأهداف النبيلة ينبغى أيضاً أن تتجه مرامى التعليم .

ولا يتسع المقام أيها السادة للإسهاب فى علاقة التعليم بالسياسة وضرب الأمثلة عليها وتحريها عند غيرنا من الأمم لنقارنها بما عندنا . فأكتفى بأن أشير إليها فى تاريخ مصر الحديث إشارة عابرة فيها مصداق ما أقول ، وفيها ذكر وعبرة ونفع للمؤمنين .

فى أيام المماليك وأيام الحملة الفرنسية قامت فى مصر نهضة وعى قومى وشعور وطنى ، حمل لواءها العلماء وفى طليعتهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم الذى استحق أن يلقبه بعض المؤرخين برئيس الرؤساء وزعيم الزعماء . وساهمت تلك النهضة الوطنية فى تنصيب المغفور له محمد على باشا مؤسس الأسرة المالكة الكريمة ومنشئ مصر والياً على مصر . فجلس على عرشها باسم الشعب المصرى وبتأييد ناطق من المصريين . وكان هذا الوالى الكريم من عباقرة البنائين ، فلم يفته ما للتعليم من الأهمية الكبرى فى تأسيس الدولة المصرية وتوطيد أركانها ، فأولاه أشد العناية وأبلغ الاهتمام .

وكان التعليم القائم تعليماً دينيًا ، يحمل أكبر عبئه الأزهر الشريف ، فلم يهدمه الوالى ولكنه أقام إلى جانبه صرح التعليم المدنى الحديث ، فأنشأ المدارس الابتدائية والتجهيزية والحربية والبحرية والخصوصية والفنية والصناعية ، ولم ينس مدارس البنات ، وأوفد البعوث العلمية ، وعنى بترجمة الكتب الأجنبية ونظم هيئة الإشراف على شؤون التعليم فأنشأ شورى المدارس فديوان المدارس ووضع اللوائح ، وأصدر القرارات بنظم الدراسة وبرامجها وخطط الإدارة

وتفصيلاتها . وعلى الجملة قد خلق من العدم نهضة تعليمية حديثة واضحة المعالم مستوفية الكيان .

ويجب أن نعترف بأن محمد على باشا مزج التعليم بالجندية إلى حد كبير ، وكان يسخره لأغراضه الحربية واعتباراته الحكومية ويرمى به إلى تعزيز الجيش بالضباط والأطباء والمهندسين والأسلحة والعتاد ، وتعزيز هيئة الحكومة بالموظفين المصريين والتمكن من الاستغناء عن الموظفين الأجانب الذين اضطر إلى استخدامهم . ولم يكن يعنى فى نهضته التعليمية إلا قليلاً بتهذيب عامة الشعب ورفع مستواهم الثقافى . ولكنى لا أحسب ذلك عيباً كبيراً ؛ فقد كان ينشئ من العدم ويماشى روح العصر ، ووفق مع ذلك إلى تحقيق الكثير من الأغراض القومية التى لخصها الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم فى كتابه القيم عن التعليم فى عصر محمد على باشا على الوجه الآتى :

١ — توجيه البلاد وجهة التعليم الحديث
٢ — نشر الثقافة الغربية إلى جانب نشر الثقافة العربية
٣ — بث الروح القومية
٤ — توطيد زعامة مصر فى الشرق العربى
٥ — النهضة باللغة العربية
٦ — فتح الباب لدعم أركان النهضة التعليمية فيما يلى من العصور .

غير أن خلفاء محمد على لم يعنوا عنايته بالتعليم ، فخبت جذوته كما خبت جذوة غيره من النهضات حتى كان عهد إسماعيل العظيم .

وإسماعيل بعد جده الكبير منشئ مصر الحديثة وصاحب الأيادى البيضاء فى يقظتها والعامل الدائب على أن تصبح مصر جزءا من أوربا فى رقيها وتقدمها ، فعادت نهضة التعليم على يديه سيرتها فى عهد جده ، وأدخل عليها الكثير من التعديلات والتحسينات وبخاصة فى الروح والنظام والأهداف ، ففُتحت المدارس الأهلية ونشر التعليم فى الأقاليم ، وأنشئت مدرسة دار العلوم لتخريج المعلمين الصالحين ، ورتبت المحاضرات والدروس العامة ، وانتشرت الجرائد السيارة وتنوعت موضوعات الكتابة فيها . وعنى على وجه خاص بالموضوعات القومية والوطنية والتهذيبية والإصلاحية . واهتم اسماعيل بالفنون الجميلة على اختلاف

ألوانها، فكان أول راع لها فى التاريخ المصرى الحديث. ومن هذا كله ترون أن إسماعيل خرج بالتعليم المدنى من دائرته الضيقة دائرة إعداد الضباط والموظفين إلى دائرة أوسع وأفق أسمى، فأصبح من مرامى التعليم تهذيب عامة الشعب ورفع مستوى الثقافة عند الأمة كلها وتكوين رأى وطنى عام يفكر فى مصاير الوطن ويحرص على مصالحه العليا.

ووافق ذلك نهضة موازية فى أفق التعليم الأزهرى على يد الزعيم الروحى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى، فكانت هاتان النهضتان العلميتان الروحيتان أساس كل نهضة قومية وحركة وطنية قامت بعد ذلك فى مصر، وإليهما تنتسب روح الثورة العرابية التى أوقدتها العناصر المصرية لإنصاف المصريين، ولم يقم بها رجال الجيش وحدهم بل حمل عبئها معهم كثير من أهل الرأى وقادة الفكر وحملة الأقلام، وفى طليعتهم محمد عبده، وعبد الله نديم، وسعد زغلول.

ثم منيت مصر بالاحتلال المشئوم، وعنى رجاله عناية فائقة بوضع اليد على شؤون التعليم وتوجيهها فى خدمة الاحتلال، وافتن مستشار المعارف المشهور المستر دنلوب فى وضع الخطط المؤدية إلى تلك الغاية، فأصبح الغرض من المدارس إعداد موظفين يفكرون بروح الاحتلال ويخدمون أغراض الاحتلال. وضيقت دائرة التعليم وحوربت المجانية فيه بل ألغيت إلغاء تامًّا، وهبط نوعه ومستواه فحول الكثير من المدارس الابتدائية إلى كتاتيب، وصرفت العناية إلى هذه الكتاتيب على حساب التعليم العالى. وفرضت اللغة الانجليزية فرضاً لا على حساب اللغة الفرنسية وحدها ولكن على حساب اللغة العربية أيضاً. وترتب على فرضها فرض المعلمين الانجليز على دور العلم وإن جهلوا فى بعض الأحيان ما يعلمون.

وغنىٌّ عن البيان أن الشعب المصرى لم يطق صبراً فى يوم من الأيام على الاحتلال بل كافحه منذ اليوم الأول وحاربه دون هوادة. وتوالت آيات هذا الكفاح وتعددت مظاهره، وكلها تمتُّ بسبب مباشر أو غير مباشر إلى التعليم.

فهذا هو الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل وصاحبه النبيل الأمين محمد فريد وأنصارهما من صفوة المثقفين ونخبة المفكرين يرفعون راية الوطنية ويقودون الحركة الاستقلالية بما أوتوا من تفوق علمى وتحرر عقلى ملأ نفوسهم بحب

الوطن وأفعم رءوسهم بحق الوطن ، وحبب إليهم فى سبيل الوطن احتمال أفدح الأرزاء وبذل أكرم الفداء .

وهذا هو سعد زغلول ابن الثورة العرابية أولا ، وأبو الثورة الاستقلالية أخيراً ، يشاء الله أحكم الحاكمين أن يتولى نظارة المعارف العمومية والاحتلال فى أشد جبروته ، فما يبالى جبروت الاحتلال ولكن يبذر فى أرض المعارف الخصبة بذور الحرية والاستقلال ، فيبادر من أول لحظة بوضع الحد لطغيان المستر دنلوب ويفهمه فى صراحة وجلاء أن الأمر فى نظارة المعارف أمر الناظر المصرى لا أمر المستشار الإنجليزى . ثم لا يزال يشؤون التعليم ينظر فيها بعين مصرية ويداويها بروح وطنية وينفى عنهـا أغراض الاحتلال حتى يستقيم لها أساس وطنى سليم . فهو يعيد المجانية وبخاصة لذوى الاستعداد من المتفوقين الذين لا تسمح لهم الحال بمواصلة التعليم . وهو يعنى بالدراسة العالية والبعوث العلمية ، وهو يحل اللغة العربية محـل اللغة الإنجليزية فينصف لغة البلاد ويرفع كرامتها ، ويسر العـلم للطلاب ، ويفتح للعلم المصرى موصد الأبواب .

وهذا هو قاسم أمين يعرف بسليم فطرته وثاقب فـكرته وواسع ثقافته مكانة المرأة فى المجتمع ، فيدعو دعوته إلى تحريرها وتعليمها لتنهض مع الرجل بواجبها فى تحرير الوطن ورفع شأنه بين الأوطان . بل هذه هى مصر الراقية كلها تضيق ذرعا بما يلقاه أبناؤها من تضييق فى التعليم العالى ، فيتنادى عِلْيَـة مفكريها ونخبة مصلحيها وينادون غيرهم لإنشاء جامعة أهلية ينمو فى كنفها التفكير الحر والشعور الوطنى الصميم ، وتتقدم الباذلين لإنشاء هذه الجامعة الأميرة الجليلة فاطمة بنت اسماعيل فتجود بالحبوس والحلى والنقود . ويرأس المشروع الأمير الجليل فؤاد بن اسماعيل ، فيبذل أكرم الجهود حتى تستوى الجامعة الأهلية مثابةً لحرية الفكر ونور العلم ، ونواةً لأول جامعة حكومية تتوِّج الثقافة المصرية وترفع رأسها فى الآفاق .

ولقد كانت حتماً مقضياً أن تفضى هذه الحركات الوطنية الرائعة والنهضات العلمية المتتابعة إلى الثورة القومية الجامعة التى عمت مصر فى سنة ١٩١٩ وقاد زمامها ناظر المعارف القديم سعد زغلول وكان طلاب العلم جنودها المخلصين .

ثم تؤتى هذه الثورة أكلها مزدوجاً طيباً ، فتحظى مصر بالدستور ويعترف

لها الاستقلال وتخلص شؤون التعليم فى ظلهما للحكومة المصرية تحت إشراف البرلمان

أيها السادة

هذا عرض مختصر لتطورات التعليم فى مصر من عهد محمد على إلى اليوم. ومنه ترون أية علاقة وثيقة تربط التعليم بالسياسة وتربط السياسة بالتعليم، حتى لتكاد تكون علاقة اندماج وامتزاج. وإذا قلنا فى مصر السياسة فكأنما نقول الوطنية. فالوطنية المصرية كانت توقد شعلة التعليم وكان التعليم يوقد شعلة الوطنية، وكان الصفوة المثقفون هم قواد الحركات القومية، وكان طلاب العلم هم طلاب الحرية والاستقلال.

والآن وقد خلصت شؤون التعليم للحكومة المصرية كما أسلفنا فانكم تدركون ولا ريب أية مسئولية خطيرة تقع علينا للنهوض بهذه الشؤون كى تتسلح مصر فى هذا المعترك الدولى المتلاطم بالعلوم والمعارف والأخلاق الفاضلة فتستطيع أن تحمى سيادتها الناشئة وأن تأخذ مكانتها اللائقة بين الأمم فى خدمة الإنسانية والعمران.

وإذا جاز لمثلى أن يبدى رأيه فيما صارت إليه شؤون التعليم تحت الإدارة الوطنية فانى لا أحسبنا جد بعيدين عن سواء السبيل.

فنحن ننكر الآن أن يكون الغرض من التعليم إعداد الموظفين، ونحرص على أن نتجه به إلى تكوين المواطن الصالح والإنسان الصالح القدير على خدمة الوطن والإنسانية ومواجهة مشاكل الحياة ومسئولياتها بما يرفع من قدر الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والوطنية ويحقق السعادة للفرد وللمجتمع جهد الإمكان.

ونحن نعرف أن أفضل الوسائل لإدراك هذه الغاية هى صرف العناية إلى شخصية الطالب وتعهدها بالتربية الجسمية والعقلية والنفسية والروحية والخلقية، والكشف عن ميولها ومواهبها، لمعاونتها على الظهور والنمو وتوجيهها وجهة المصلحة والخير.

ونحن نفهم أن أحسن التربية ما كان أساسه غرس الثقة بالنفس والاعتماد عليها وتنمية روح الإيثار والتضحية فى سبيل الصالح العام.

ونحن نحاول دائبين فى دوائرنا التعليمية رسمية وغير رسمية أن نأخذ بهذه الوسائل ونحقق هذه الغايات .

ونحن نتجه إلى تعميم العلم وتيسيره للجميع بنات وبنين وأغنياء وفقراء على السواء . وقد خطونا فى هذا السبيل الديمقراطى الوطنى خطوة طيبة بتعميم المجانية فى التعليم الابتدائى القائم وتوسيعها فى التعليمين الثانوى والعالى والأخذ بمبدأ تكافؤ الفرص لأبناء الوطن أجمعين .

ولكن يجب أن نعلم أننا لم نقطع إلا شوطاً قصيراً ، وما زال أمامنا شوط ناء بعيد . وإن النتائج على وجه خاص لاتدعو إلى الإسراف فى التفاؤل ؛ إذ بالرغم من المحاولات المتتابعة لتصحيح أهداف التعليم وتحسين قواعده ووسائله لا يزال أكثر المتعلمين يجنحون إلى وظائف الحكومة ويجعلونها همهم الناصب فى الحياة . فإذا اتجه البعض إلى الأعمال الحرة فكثيراً ما يلاحظ عليه التقصير ونقص الاستعداد .

ثم إن الطلاب بوجه عام فى أشد الحاجة إلى روح الطاعة والنظام وتوقير الرؤساء واحترام أولياء الأمور . ويلاحظ على أكثرهم ضعف الشخصية وقصور الهمة والعجز عن احتمال التبعات ومواجهة المسئوليات .

وهذه النتائج السيئة جديرة بأن تلفت أنظارنا إلى ما لا يزال يعلق بأنظمتنا التعليمية من العيوب والشوائب ، وبأن تحفزنا إلى التماس ما يجب لها من الطب والدواء . وتلك مهمتكم معشر القائمين بأمور التعليم . وكل ما يستطيعه صديق مثلى هو أن ينصح بالأناة والتريث واستيفاء البحث والدرس قبل التغيير والتبديل . فنظامنا التعليمى بحاجة إلى الاطمئنان والاستقرار بمقدار ما يحتاج إلى التحسين والإصلاح .

وهناك عيوب أخرى يجب أن أشير إليها فى هذا المقام ولكنها ليست من عيوب التعليم بل هى من عيوب السياسة التى يمكن أن نصلحها بالتعليم فقد أصبح جوُّنا السياسى مليئا بالأثرة والأنانية والحقد والكراهية والمهاترات والخصومات ، وكادت المصالح الحزبية والشخصية تغرق المصالح الوطنية فى لجها ، وتفرقت الكلمة أيدى سبأ ونحن أشد ما نكون حاجة إلى تضافر الجهود وائتلاف القلوب .

وأخشى ما أخشاه أن تنتقل هذه الآفات من الساسة المدبرين إلى الساسة

الناشئين وأن تغزو نفوس الشباب وهم ذخر الوطن فى الملمات وعدته للنائبات وأمل الحاضر الحزين فى مستقبل سعيد أمين .

فاحذروا معشر المعلمين هذه العاقبة النكراء ، وجنبوا مصر شرورها ؛ ففى ذمتكم أخلاق الشباب . ومن كانت أخلاق الشباب فى ذمته ففى ذمته مصير البلاد نشئوهم على إنكار الذات وإيثار المواطنين .

علموهم حب الوطن والتضحية فى سبيله بما يملكون .

واغرسوا فيهم روح التضافر القومى والتكافل الأخوى ليكونوا برداً وسلاماً على إخوانهم فى الوطنية ونارا حامية على المغتصبين .

ولا تخشوا أن يقال أقحموا السياسة فى التعليم ، فالسياسة المنكرة فى معاهد العلم هى سياسة الحزبية والتفريق ؛ أما دعوة الإخاء والوطنية فما أجدر أن تكون عندنا كما هى عند غيرنا أول الأسس فى سياسة التعليم .

محمد صلاح الدين